نقول : فلان عادل . وفى المبالغة نقول : فلان عَدْل . كأن العَدْل مجسَّم فيه ، وليس مجرد واحد ثبتت له صفة العدل .

وكذلك مثل قولنا عالم وعليم ، وقد قال تعالى :

﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ (٧٦) ﴾ [يوسف]

فما معنى الهدى ؟ هو الدلالة على الطريق الموصِّل للغاية من أقرب الطرق .

﴿ ورَحْمَةً ﴾ مرّة يُوصَف القرآن بأنه رحمة ، ومرة بأنه :

﴿ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ .. (٨٢) ﴾ [الإسراء]

والشفاء : أن يُوجد داء يعالجه القرآن ، والرحمة : هى الوقاية التى تمنع وجود الداء ، وما دام القرآن كذلك فَمَنْ عمل بمنهجه فقد بُشِّر بالثواب العظيم من الله تعالى ، الثواب الخالد فى نعيم دائم .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآىِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٩٠) ﴾

للحق تبارك وتعالى فى هذه الآية ثلاثة أوامر : العدل ، والإحسان ، وإيتاء ذى القُرْبى . وثلاثة نَواه : عن الفحشاء والمنكر والبغى . ولما نزلت هذه الآية قال ابن مسعود : أجمعُ آيات القرآن للخير هذه

الآية[١] لأنها جمعتْ كل الفضائل التى يمكن أن تكون فى القرآن الكريم .

ولذلك سيدنا عثمان بن مظعون[٢] كان رسول الله ﷺ يحب له أن يُسلم ، وكان يعرض عليه الإسلام دائماً ، ورسول الله ﷺ لا يحب عَرْض الإسلام على أحد إلا إذا كان يرى فيه مخايل وشيَماً تحسن فى الإسلام .

وكأنه - ﷺ - ضَنَّ بهذه المخايل أن تكون فى غير مسلم ، لذلك كان حريصاً على إسلامه وكثيراً ما يعرضه عليه ، إلا أن سيدنا عثمان بن مظعون تريَّث فى الأمر ، إلى أن جلس مع الرسول ﷺ فى مجلس ، فرآه رَفع بصره إلى السماء ثم تنبه ، فقال له ابن مظعون : ما حدث يا رسول الله ؟ فقال : إن جبريل - عليه السلام - قد نزل علىَّ الساعة بقول الله تعالى :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٩٠) ﴾ [النحل]

قال ابن مظعون - رضى الله عنه : فاستقر حبُّ الإيمان فى قلبى بهذه الآية الجامعة لكل خصال الخير[٣] .

ثم ذهب فأخبر أبا طالب ، فلما سمع أبو طالب ما قاله ابن مظعون فى هذه الآية قال : يا معشر قريش آمنُوا بالذى جاء به محمد ، فإنه قد جاءكم بأحسن الأخلاق[٤] .

---

(١) أورده القرطبى فى تفسيره (٥/٣٨٩٢) .

(٢) هو : عثمان بن مظعون الجمحى ، أبو السائب ، صحابى ، كان من حكماء العرب فى الجاهلية ، أسلم بعد ثلاثة عشر رجلاً ، هاجر إلى أرض الحبشة مرتين ، شهد بدراً ، لما مات جاءه النبى ﷺ فقبله ميتاً ، حتى رؤيت دموعه تسيل على خد عثمان . [الأعلام للزركلى ٤/٢١٤] .

(٣) أورده السيوطى فى الدر المنثور (٥/١٥٩) وعزاه لأحمد والبخارى فى الأدب وابن أبى حاتم والطبرانى وابن مردويه عن ابن عباس رضى الله عنهما ، وكذا أورده الواحدى فى أسباب النزول (١٦١) .

(٤) أورده القرطبى فى تفسيره (٥/٣٨٩١) أن أبا طالب قال : اتبعوا ابن أخى ، فوالله إنه لا يأمر إلا بمحاسن الأخلاق.

ويُروى أن رسول الله ﷺ وهو يعرض نفسه على قبائل العرب ، وكان معه أبو بكر وعلى ، قال على : فإذا بمجلس عليه وقار ومَهَابة ، فأقبل عليهم رسول الله ﷺ ودعاهم إلى شهادة ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فقام إليه مقرون بن عمرو وكان من شيبان ابن ثعلبة فقال : إلى أى شىء تدعونا يا أخا قريش ؟ فقال ﷺ :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِى الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾ [النحل]

فقال مقرون : إنك دعوت إلى مكارم الأخلاق وأحسن الأعمال ، أفكتْ[1] قريش إن خاصمتْك وظاهرتْ عليك .

أخذ عثمان بن مظعون هذه الآية ونقلها إلى عكرمة بن أبى جهل ، فأخذها عكرمة ونقلها إلى الوليد بن المغيرة ، وقال له : إن آية نزلت على محمد تقول كذا وكذا ، فأفكر[2] الوليد بن المغيرة - أى : فكَّر فيما سمع - وقال : والله إن له لحلاوةً ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق ، وإنه يعلو ولا يُعلَى عليه ، وما هو بقول بشر[3] .

ومع شهادته هذه إلا أنه لم يؤمن ، فقالوا : حَسْبُه أنه شهد للقرآن وهو كافر .

---

(١) الإفك : الكذب والإثم . والأفاك : الذى يأفك الناس أى يصدهم عن الحق بباطله . والمأفوك : المأفون وهو ضعيف العقل والرأى . [لسان العرب - مادة : أفك] .

(٢) فكرَ فى الشىء وأفكر فيه وتفكّر . بمعنى واحد . [لسان العرب - مادة : فكر] .

(٣) أورده القرطبى فى تفسيره (٥/٣٨٩٢) .

وهكذا دخلتْ هذه الآيةُ قلوبَ هؤلاء القوم ، واستقرتْ فى أفئدتهم ؛ لأنها آيةٌ جامعةٌ مانعةٌ ، دعَتْ لكل خير ، ونَهتْ عن كل شر .

قوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ ..(٩٠) ﴾ [النحل]

ما العدل ؟ العدل هو الإنصاف والمساواة وعدم الميْل ؛ لأنه لا يكون إلا بين شيئين متناقضين ، لذلك سُمِّى الحاكم العادل مُنْصفاً ؛ لأنه إذا مَثَلَ الخصمان أمامه جعل لكل منهما نصفَ تكوينه ، وكأنه قسَم نفسه نصفين لا يميل لأحدهما ولا قَيْد شعرة ، هذا هو الإنصاف .

ومن أجل الإنصاف جُعِل الميزان ، والميزان تختلف دقّته حَسْب الموزون ، فحساسية ميزان البُرّ غير حساسية ميزان الجواهر مثلاً ، وتتناهى دقّة الميزان عند أصحاب صناعة العقاقير الطبية ، حيث أقلّ زيادة في الميزان يمكن أن تحوّل الدواء إلى سُمٍّ ، وقد شاهدنا تطوراً كبيراً فى الموازين ، حتى أصبحنا نزن أقلّ ما يمكن تصوّره .

والعدل دائر فى كل أقضية الحياة من القمة فى شهادة ألا إله إلا الله إلى إماطة الأذى عن الطريق ، فالعدل مطلوب فى أمور التكليف كلها ، فى الأمور العقدية التى هى عمل القلب ، وكذلك مطلوب فى الأمور العملية التى هى أعمال الجوارح فى حركة الحياة .

فكيف يكون العدل فى الأمور العقدية ؟

لو نظرنا إلى معتقدات الكفار لوجدنا بعضهم يقول بعدم وجود

إله فى الكون ، فأنكروا وجوده سبحانه مطلقاً ، وآخرون يقولون بتعدُّد الآلهة ، هكذا تناقضتْ الأقوال وتباعدتْ الآراء ، فجاء العدل فى الإسلام ، فالإله واحد لا شريك له ، مُنزَّه عمّا يُشبه الحوادث ، كما وقف موقفَ العدل فى صفاته سبحانه وتعالى .

فلله سَمْع ، ولكن ليس كأسماع المحدثات ، لا ننفى عنه سبحانه مثل هذه الصفات فنكون من المعطِّلة ، ولا نُشبِّهه سبحانه بغيره فنكون من المشبِّهة ، بل نقول : ليس كمثله شيء ، ونقف موقف العَدْل والوسطية .

كذلك من الأمور العقدية التى تجلَّى فيها عدل الإسلام قضية الجبر والاختيار ، حيث اختار موقفاً وسطاً بين مَنْ يقول إن الإنسان يفعل أفعاله باختياره دون دَخْل لله سبحانه فى أعمال العبد ؛ ولذلك رتَّبَ عليها ثواباً وعقاباً . ومن يقول : لا ؛ بل كل الأعمال من الله والعبد مُجْبَر عليها .

فيأتى الإسلام بالعدالة والوسطية فى هذه القضية فيقول : بل الإنسان يعمل أعماله الاختيارية بالقوة التى خلقها الله فيه للاختيار .

وفى التشريع والأحكام حدث تبايُن كبير بين شريعة موسى عليه السلام وبين شريعة عيسى عليه السلام ـ فى القصاص مثلاً : فى شريعة موسى حيث طغتْ المادية علىَ بنى إسرائيل حتى قالوا لموسى عليه السلام :

﴿ أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً (١٥٣) ﴾ [النساء]

فهم لا يفهمون الغيبَ ولا يقتنعون به ، فكان المناسب لهم

القصَاص ولابُدّ ، ولو تركهم الحق سبحانه لَكَثُر فيهم القتل ، فهم لا ينتهون إلا بهذا الحُكْم الرادع : مَنْ قتَل يُقتلُ ، والقتل أنْفى للقتل .

وقد تعدّى بنو إسرائيل فى طلبهم رؤية الله ، فكونُك ترى الإله تناقض فى الألوهية ؛ لأنك حين تراه عينُك فقد حددّتَه فى حيِّز .

إذن : كونه لا يرى عَيْن الكمال فيه سبحانه وتعالى . وكيف نطمع فى رؤيته جَلَّ وعلاً ، ونحن لا نستطيع رؤية حتى بعض مخلوقاته ، فالروح التى بين جَنْبى كل منّا ماذا نعرف عن طبيعتها وعن مكانها من الجسم ، وبها نتحرك ونزاول أعمالنا ، وبها نفكّر ، وبها نعيش ، أين هى ؟!

فإذا ما فارقتْ الروح الجسم وأخذ الله سره تحول إلى جيفة يسارع الناس فى مواراتها التراب . هل رأيت هذه الروح ؟ هل سمعتها ؟ هل أدركتها بأى حاسّة من حواسّك ؟!

فإذا كانت الروح وهى مخلوقة لله يعجز العقل عن إدراكها ، فكيف بمَنْ خلق هذه الروح ؟ فمن عظمته سبحانه أنه لا تُدركه الأبصار ، وهو يدرك الأبصار .

كذلك هناك أشياء مما يتطلبها الدين كالحق مثلاً ، وهو معنىً من المعانى التى يدّعيها كل الناس ، ويطلبون العمل بها ، هذا الحق ما شكْله ؟ ما لونه ؟ طويل أم قصير ؟! فإذا كُنّا لا نستطيع أن نتصوّر الحق وهو مخلوق لله سبحانه ، فكيف نتصور الله ونطمع فى رؤيته ؟!

ومن إسـراف بنى إسـرائيل فى المـادية أن جـعلوا لله تعـالى فى التلمود جماعـة من النقباء ، وجعلوه سبحانه قـاعداً على صخرة يُدلى رِجْلَيْه فى قـصعة من المـرمر ، ثم أتى حوت .. الخ .. سبـحان الله ؛ ألهذا الحدِّ وصلتْ بهم المادية ؟

ومن هنا كان الكون فى حاجة إلى طاقة روحية ، تكون هى أيضاً مُسـرفة فى الروحـانية ليحـدث نوع من التوازن فى الكون ، فـجاءت شـريعة عـيسى ـ عـليه السـلام ـ بعد مـادية مُـفْرطة وإسـراف فى المـوسَوية ، فكـيف يكون حُكْم القـصاص فـيـها وهى تهـدف إلى أنْ تسموَ بروحانيات الناس ؟

جـاءت شريعـة عـيسى عليـه السلام تُهـدّىء الموقف إذا حـدث قتل ، فيكفى أن قُتِل واحـد ولنستبقى الآخر ولا نثيـر ضجّة ، ونهيج الأحـقـاد والترة بين الـنـاس ، فدَعَتْ هـذه الشـريعـة إلى العفـو عن القاتل .

ثم جاء الإسـلام ووقف موقف العدل والوسطـية فى هذا الحكم ، فأقرَّ القصاص ودعا إلى العفـو ، فأعطى ولىَّ المقتول حَقّ القصاص ، ودعاه فى نفس الوقت إلى العفو فى قوله تعالى :

﴿ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ .. (١٧٨) ﴾ [البقرة]

ونلاحظ هنـا أن القـرآن جـعلهـم إخـوة ليُـرقِّق القـلوب ويُزيل الضغائن .

وللقصاص فى الإسلام حكَم عـالية ، فليس الهدف منه أن يُضخِّم هذه الجريمة ، بل يهدف إلى حفظ حياة الناس كما قال تعالى :

﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَـٰأُولِى الْأَلْبَابِ .. (١٧٩) ﴾ [البقرة]

فمن أراد أنْ يحافظَ على حياته فلا يُهدد حياة الآخرين .

وحينمـا يُعطى ربُّنا تبارك وتعـالى حقَّ القصــاص لولىِّ المقـتول ويُمكِّنه منه تبردُ ناره ، وتهدأ ثورته ، فيفكر في العفو وهو قادر على الانتقام ، وهكذا ينزع هذا الحكمُ الـغِلَّ من الصدور ويُطفِىء نار الثأر بين الناس .

ولذلك نرى فى بعض البلاد الـتى تنتشر فيـها عمليـة الثأر يأتى القاتل حاملاً كفنه على يده إلى ولىِّ المـقتول ، ويضع نفسه بين يديه مُعترفاً بجريمته : ها أنا بين يديْك اقتلنى وهذا كفنِى .

مـا حدث ذلك أبداً إلا وعـفا صـاحب الحق وولىّ الدم ، وهذا هو العدل الذى جاء به الإسلام ، دين الوسطية والاعتدال .

هذا العفو من ولىِّ الدم أداةُ بِـنَاء ، ووسيلة محبة ، فـحين نعطيه حَقَّ القصاص ، ثم هو يعفو ، فقد أصـبحتْ حياة القاتل هبةً من ولىِّ الدم ، فكأنه استـأثره واستبقـاه بعفوه عنه ، وهذا جمـيل يحفظه أهل القاتل ، ويقولون : هذا حَقَن دم ابننا .

مـوقف آخـر لعدالة الإسـلام ووسطيتـه نراها فى حُكْم الحـيض مثلاً ، فـفى شريعة موسى ـ عليه السلام ـ يُخـرج الزوج زوجته من البيت طوال مدة الحيض لا يجمعهما بيت واحد .

وفى شريعة عيسى - عليه السلام - لا مانع من وجودها فى البيت ، ولا مانع من معاشرتها والاستمتاع بها .

فجاء الإسلام بالعدل فى هذه القضية فقال : تبقى المرأة الحائض فى بيتها لا تخرج منه ، ولكن لا يقربها الزوج طوال مدة الحيض ، فقال تعالى :

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلاَ تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ (٢٢٢) ﴾ [البقرة]

وكذلك لو أخذنا الناحية الاقتصادية فى حياتنا ، والتى هى عصب الحياة ، والتى بها يتم استبقاء الحياة بالطعام والشراب والملْبس وغيره ، وبها يتم استبقاء النوع بالزواج ، وكُل هذا يحتاج إلى حركة إنتاج ، وإلى حركة استهلاك ، وبالإنتاج والاستهلاك تستمر الحياة ، ولو توقف أحدهما لحدث فى المجتمع بطالة وفساد .

وبناء عليه وزّع الحق سبحانه وتعالى المواهب بين العباد ، فما أعرفه أنا أخدم به الكل ، وما يعرفه الكل يَخدمنى به ، وهكذا تستمر حركة الحياة .

والكون الذى تعيش فيه أنت لك فيه مصالح وتُراودك فيه آمال ، فإنْ شاركتَ فى حركة الحياة واكتسبتَ المال الذى هو عصبُ الحياة فعليك أن تُوازنَ بين متطلباتك العاجلة وآمالك فى المستقبل .

فلو أنفقتَ جميع ما اكتسبت فى نفقاتك الحاضرة فقد ضيَّعتَ على نفسك تحقيق الآمال فى المستقبل ، فلن تجد ما تبنى به بيتاً مثلاً ، أو تشترى به سيارة ، أو ترتقى بمستواك ببعض كماليات الحياة .

وهذا ما نسميه الإسراف .

وفى المقابل ، كما لا يليق بك الإسراف حتى لا يبقى عندك شىء ، وكذلك لا يليق بك التقتير والبخل والإمساك فتكنز كل ما تكتسب ، ولا تنفق إلا ما يُمسك الرمَق ؛ لأنك فى هذه الحالة لن تساهم فى عملية الاستهلاك ، فتكون سبباً فى بطالة المجتمع وفساد حاله .

وقد عالج القرآن هذه القضية علاجاً دقيقاً فى قوله تعالى :

﴿ وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ ﴾ [الإسراء]

أى : لا تُمسك يدك بُخْلاً وتقتيراً ، فتكون ملُوماً من أهلك وأولادك ، ومن الدنيا من حولك ، فيكرهك الجميع ، وكذلك لا تبسط يدك بالإنفاق بَسْطاً يصل إلى حَدّ الإسراف والتبذير ، فيفوتك تحقيق الآمال وتتحسَّر حينما ترى المقتصد قد حقَّق ما لم تستطع أنت تحقيقه من آمال الحياة ، وترقَّى هو فى حياته وأنت مُعْدَم لا تملك شيئاً ، فكان عليك أن تدّخر جُزْءاً من كَسْبك يمكنك أن ترتقى به حينما تريد .

ولذلك قال تعالى :

﴿ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الإسراء]

وقال : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا[1] وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ

---

(١) قتر الرجل على عياله : ضيَّق عليهم فى النفقة . [القاموس القويم ٢/٩٩] .

قَوَامًا ﴿٦٧﴾ [الفرقان]

إذن : فالعَدْل أمر دائر فى كل حركات التكليف ، سواء كان تكليفاً عَقَدياً ، أو تكليفاً بواسطة الأعمال فى حركة الحياة ، فالأمر قائم على الوسطية والاعتدال ، ومن هنا قالوا : خَيْر الأمور الوسط .

وقوله : ﴿ وَالإِحْسَانِ.. ﴿٩٠﴾ ﴾ [النحل]

ما الإحسان ؟

إذا كان العدل أن تأخذ حقَّك ، وأنْ تُعاقب بمثل ما عُوقبت به كما قال تعالى :

﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ..﴿١٩٤﴾ ﴾ [البقرة]

وقوله : ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ .. ﴿١٢٦﴾ ﴾ [النحل]

فالإحسان أنْ تتركَ هذا الحق ، وأنْ تتنازلَ عنه ابتغاءَ وجه الله ، عملاً بقوله تعالى :

﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ ﴾ [آل عمران]

والناس فى الإحسان على مراتب مختلفة حسب قدرة الإنسان واستعداده الخُلقى .

وأول هذه المراتب كظم الغيظ ، من كَظْم القِرْبة المملوءة ،

فالإنسان يكظم غَيْظه فى نفسه ، ويحتمل ما يَعتلج بداخله على المذنب دون أن يتعدَّى ذلك إلى الانفعال والردّ بالمثل ، ولكنه يظل يعانى ألم الغيظ بداخله وتتأجج ناره فى قلبه .

لذلك يحسُن الترقى إلى المرتبة الأعلى ، وهى مرتبة العفو ، فيأتى الإنسان ويقول : لماذا أدَعُ نفسى فريسة لهذا الغيظ ؟ لماذا أشغل به نفسى ، وأقَاسى ألمه ومرارته ؟ فيميل إلى أنْ يُريح نفسه ويقتلع جذور الغيظ من قلبه ، فيعفو عمَّنْ أساء إليه ، ويُخرِج المسألة كلها من قلبه .

فإنِ ارتقى الإنسان فى العفو ، سعى إلى المرتبة الثالثة ، وهى مرتبة أن تُحسن إلى مَنْ أساء إليك ، وتزيد عما فرضَ لك حيث تنازلتَ عن الردِّ بالمثل ، وارتقيتَ إلى درجة العارفين بالله ، فالذى اعتدى اعتدى بقدرته ، وانتقم بما يناسبه ، والذى ترقَّى فى درجات الإحسان ترك الأمر لقدرة الله تعالى ، وأيْن قدرتُك من قدرة ربك سبحانه وتعالى ؟

إذن : فالإحسان أجمل بالمؤمن ، وأفضل من الانتقام .

لكن كيف يصل الأمر إلى أنْ تعفوَ عمَّنْ أساء ، بل إلى أنْ تُحسِن إليه ؟

نقول : هَبْ أن لك ولديْن اعتدى أحدهما على الآخر وأساء إليه ، فماذا يكون موقفك منهما ؟ وإلى أيِّهما يميل قلبك ؟

لا شكَّ أن القلب هنا يميل إلى المعتدى عليه ، وقد يتعدّى الأمر

إلى أنْ تُرضيه بهدية وتُريه من حنانك وألطافك ما يُذهب عنه ما يُعانى ، والسبب في ذلك إساءة أخيه له فهى التى عطفتْ قلبك إليه ، وعادتْ عليه بالهدايا والألطاف .

إذن : من الطبيعى أنْ يُحسنَ المعتَدى عليه إلى المعتدى ، وأنْ يشكرَ له أنْ تسبَّب له فى هذه النعم ؛ ولذلك يقول الحسن البصرى - رحمه الله : أفلا أُحسِن لمن جعل الله فى جانبى ؟

فالإحسان : أنْ تصنع فوق ما فرض الله عليك ، بشرط أن يكونَ من جنس ما فرض الله عليك ، ومن جنس ما تعبَّدنا الله به ، فمثلاً تعبَّدنا الله بخمس صلوات فى اليوم والليلة فلا مانعَ من الزيادة عليها من جنسها ، وكذلك الأمر فى الزكاة والصيام والحج . والإحسان هنا يكون بزيادة ما فرضه الله علينا .

وقد يكون الإحسان فى الكيفية دون زيادة فى العمل ، فلا أزيد مثلاً عن خمس صلوات ، ولكن أُحسن ما أنا بصدده من الفرْض ، وأتقن ما أنا فيه من العمل ، وأُخلِص فى ذلك عملاً بحديث جبريل عليه السلام - حينما سأل رسول الله ﷺ عن الإحسان ، فقال : « الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكُنْ تراه فإنه يراك »[1].

فعليك أن تستحضر فى عبادتك ربك عز وجل بجلاله وجماله وكماله ، فإنْ لم تصل إلى هذه المرتبة فلا أقلّ من أن تؤمن أنه يراك ويطلع عليك ، وهذه كافية لأنْ تُعطى العبادة حقّها ولا تسرق منها ،

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٠) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه ، وأخرجه مسلم فى صحيحه (٨) كتاب الإيمان من حديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

فاللصُّ لا يجرؤ على سرقة البيت وهو يعلم أن صاحبه يراه ، فإذا كنا نفعل ذلك مع بعضنا البعض فيخشى أحدنا نظر الآخرين ، أيليق بنا أنْ نتجرأ على الله ونحن نعلم نظره إلينا ؟!

ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى في الحديث القدسى :

« يا عبادى ، إنْ كنتم تعتقدون أنّى لا أراكم فالخلَل في إيمانكم ، وإنْ كنتم تعتقدون أنى أراكم ، فَلِمَ جعلتمونى أهونَ الناظرين إليكم ؟ »

وقال بعضهم[1] في معنى العدل والإحسان :

العدل : أن تستوى السريرة مع العلانية .

والإحسان : أن تعلو السريرة وتكون أفضل من العلانية .

والمنكر : إنْ علَتْ العلانية على السريرة .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ .. ﴿٩٠﴾ ﴾ [النحل]

إيتاء : أى إعطاء .

قالوا : لأن العالم حلَقات مقترنة ، فكل قادر حوله أقرباء ضُعَفاء محتاجون ، فلو أعطاهم من خيْره ، وأفاض عليهم مِمّا أفاض الله عليه

---

(١) قاله سفيان بن عيينة فيما نقله القرطبي عنه في تفسيره (٥/٣٨٩٢) وقال ابن العربي :
- العدل بين العبد وبين ربه إيثار حقه تعالى على حظ نفسه ، وتقديم رضاه على هواه ، والاجتناب للزواجر ، والامتثال للأوامر .
- وأما العدل بينه وبين نفسه فمنعها مما فيه هلاكها ، ولزوم القناعة في كل حال ومعنى .
- وأما العدل بينه وبين الخلق فبذل النصيحة ، وترك الخيانة فيما قلّ وكثر ، والإنصاف من نفسك لهم بكل وجه ، ولا يكون منك إساءة إلى أحد بقول ولا فعل ، لا في سر ولا في علن ، والصبر على ما يصيبك منهم من البلوى .

لَعَمَّ الخير كل المجتمع ، وما وجدنا مُعْوزاً محتاجاً ؛ ذلك لأن هذه الدوائر ستشمل المجتمع كله ، كل قادر يُعطى مَنْ حوله .

وقد تتداخل هذه الدوائر فتلتحم العطاءات وتتكامل ، فلا نرى فى مجتمعنا فقيراً ، وقد حثتْ الآية على القريب ، وحنَّنَتْ عليه القلوب ؛ لأن البعيد عنك قريب لغيرك ، وداخل فى دائرة عطاء أخرى .

وقد يكون الفقير قريباً لعدة أطراف يأخذ من هذا ويأخذ من هذا ، وبذلك تتكامل الحياة وتستطرق موارد العيش لكل الناس .

وقالوا : المراد هنا قرابة النبى ﷺ ؛ لأن قرابة النبى ﷺ حرَّمتْ عليهم الزكاة التى أُحلّت لغيرهم من الفقراء ، وأصبح لهم مَيْزة يمتازون بها عن قرابة الرسول ، ولا يليق بنا أن نجعل قرابة رسول الله ﷺ فى حاجة إلى الزكاة ، وإنْ كان أقرباؤكم أصحابَ رحم ، فلا تنسوا أن قرابة رسول الله ﷺ أوْلى من أرحامكم ، كما قال تعالى :

﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ .. ⟨٦⟩﴾ [الأحزاب]

هذه هى مجموعة الأوامر الواردة فى هذه الآية ، وإنَّ مجتمعاً يُنفِّذ مثل هذه الأوامر ويتحلّى بها أفراده ، مجتمع ترتقى فيه الاستعدادات الخُلقية ، إلى أن يترك الإنسان العقوبة والانتقام ويتعالى عن الاعتداء إلى العفو ، بل إلى الإحسان ، مجتمع تعمُّ فيه النعمة ، ويستطرق فيه الخير إلى كل إنسان .

إن مجتمعاً فيه هذه الصفات لَمجتمعٌ سعيد آمنٌ يسوده الحب والإيمان والإحسان ، إنه لجدير بالصدارة بين أمم الأرض كلها .

وقوله :

﴿ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ ..(٩٠)﴾ [النحل]

وهذه مجموعة من النواهى تمثل مع الأوامر السابقة منهجاً قرآنياً قوياً يضمن سلامة المجتمع ، وأولى هذه النواهى النهى عن الفحشاء أو الفاحشة ، والمتتبع لآيات القرآن الكريم سيجد أن الزنا هو الذنب الوحيد الذى سماه القرآن فاحشة ، فهى إذن الزنا ، أو كل شىء يخدش حُكْماً من أحكام الله تعالى ، ولكن لماذا الزنا بالذات ؟

نقول : لأن كل الذنوب الأخرى غير الزنا إنما تتعلق بمحيطات النفس الإنسانية ، أما الزنا فيتعلّق بالنفس الإنسانية ذاتها ، ويترتب عليه اختلاط الأنساب وبه تدنَسُ الأعراض ، وبه يشكُّ الرجل فى أهله وأولاده ، ويحدث بسبب هذا من الفساد ما لا يعلمه إلا الله ؛ لذلك نصَّ عليه القرآن صراحة فى قوله تعالى :

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً (٣٢)﴾ [الإسراء]

ومن أقوال العلماء فى الفاحشة : أنها الذنب العظيم الذى يخجل صاحبه منه ويستره عن الناس ، فلا يستطيع أنْ يُجاهر به ، كأنه هو نفسه حينما يقع فيه يعلم أنه لا يصحّ ، ولا ينبغى لأحد أن يطلع عليه .

(والمنكر) هو الذنب الذى يتجرأ عليه صاحبه ، ويُجاهر به ، ويستنكره الناس .

إذن : لدينا هنا مرتبتان من الذنب :

الأولى : أن صاحبه يتحرّج أن يعرفه المجتمع فيستره فى نفسه ، وهذا هو الفحشاء .

والثانية: ما تعالم به صاحبه وأنكره المجتمع ، وهذا هو المنكر .

(والبغى) هو الظلم فى أىِّ لوْنٍ من ألوانه ، وهو داخل فى أشياء كثيرة أعظمها ما يقع فى العقيدة من الشرك بالله ، كما قال تعالى :

﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ ﴾ [لقمان]

والظلم هنا أنْ تسلبَ الحق ـ تبارك وتعالى ـ صفة من صفاته ، وتشرك معه غيره وهو خلقك ورزقك ، ومنه ظلم الرسول ﷺ حيث لم يُجرَّب عليه فى يوم من الأيام أنْ قال خطبة أو ألقى قصيدة ، كما لم يُجرّب عليه الكذب أو غيره من الصفات الذميمة ، ومع هذا كله قالوا عنه حينما نزل عليه القرآن كذاب وساحر ومجنون ، وأىُّ ظلم أعظم من هذا ؟

ومن الظلم ظُلْم الإنسان لنفسه حينما يُحقِّق لها شهوة عاجلة ومُتعةً زائفة ، تُورثه ندماً وحَسْرة وألماً آجلاً ، وبذلك يكون قد ظلم نفسه ظلماً كبيراً وجرَّ عليها ما لا تطيق ، ذلك فَضْلاً عن ظلم الإنسان لغيره بشتى أنواع الظلم وأشكاله .

إذن : الآية انتظمتْ مجموعة من الأوامر والنواهى التى تضمن سلامة المجتمع بما جمعتْ من مكارم الأخلاق ، والأخلاق أعمُّ من أن تكون فى الاعتقادات ، وأعمُّ من أن تكون فى المعجزة إيماناً بها ، وأعمُّ من أن تكون فى التكاليف ، وأعمُّ من أن تكون فى أمر لا حدَّ فيه ولا حُكْمَ ولا إثم .

وقوله :

﴿ يَعِظُكُمْ ..﴿٩٠﴾ ﴾ [النحل]

الوعظ : تذكير بالحكم ، فعندنا أولاً إعلام بالحكم لكى نعرفه ، ولكنه عُرْضة لأنْ نغفلَ عنه ، فيكون الوعظ والتذكير به ، ونحتاج إلى تكرار ذلك حتى لا نغفل .

وعادة لا تكون العظة إلا فيما له قيمة ، ومادام الشيء له قيمة فلا تصطفى له إلا مَنْ تحب ، كذلك الحق - تبارك وتعالى - يحب خَلْقه وصَنْعته ؛ لذلك يَعظهم ويُذكّرهم باستمرار لكى يكونوا دائماً على الجادة ليتمتعوا بنعم المسبِّب فى الآخرة ، كما تمتعوا بنعمة الأسباب فى الدنيا .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ ﴾

الوفاء : أنْ تفِيَ بما تعاهدتَ عليه ، والعهود لا تكون فى المفروض عليك ، إنما تكون فى المباحات ، فأنت حُرٌّ أنْ تلقانى غداً وأنا كذلك ، لكن إذا اتفقنا وتعاهدنا على اللقاء غداً فى الساعة كذا ومكان كذا فقد تحوّل الأمر من المباح إلى المفروض ، وأصبح كُلٌّ منّا ملزماً بأن يفى بعهده ؛ لأن كل واحد منّا عطّل مصالحه ورتّب أموره على هذا اللقاء ، فلا يصح أنْ يفىَ أحدنا ويُخلف الآخر ، لأن ذلك يتسبب فى عدم تكافؤ الفُرص ، ومعلوم أن مصالح العبادِ فى الدنيا قائمة على الوفاء بالعهد .

وقد ينظر البعض إلى الوفاء بالعهد على أنه مُلْزَمٌ به وحده، أو أنه عبءٌ عليه دون غيره، لكنه في الحقيقة عليك وعلى غيرك، فكما طَلب منك الوفاء طلبه كذلك من الآخرين، فكلّ تكليف لك لا تنظر إليه هذه النظرة، بل تنظر إليه على أنه لصالحك.

فمن أخذ التكاليف وأحكام الله من جانبه فقط يتعب، فالحق - تبارك وتعالى - كما كلفك لصالح الناس فقد كلّف الناس جميعاً لصالحك، فحين نهاك عن السرقة مثلاً إياك أنْ تظنّ أنه قيّد حريتك أمام الآخرين؛ لأنه سبحانه نهى جميع الناس أن يسرقوا منك، فمَن الفائز إذن؟ أنا قيّدت حريتك بالحكم، وأنت فرْد واحد، ولكني قيّدتُ جميع الخلق من أجلك.

كذلك حين أمرك الشرع بغضٍّ بصرك عن محارم الناس، أمر الناس جميعاً بغضٍّ أبصارهم عن محارمك[1]. إذن: لا تأخذ التكليف على أنه عليك، بل هو لك، وفي صالحك أنت.

كثيرون من الأغنياء يتبرّمون من الإنفاق، ويضيقون بالبذْل، ومنهم مَنْ يَعُد ذلك مَغْرماً لأنه لا يدري الحكمة من تكليف الأغنياء بمساعدة الفقراء، لا يدري أننا نُؤمِّن له حياته.

وها نحن نرى الدنيا دُوَلاً وأغياراً، فكم من غنيٍّ صار فقيراً، وكم من قوي صار ضعيفاً.

إذن: فحينما يأخذ منك وأنت غنيّ نُطمئنك: لا تخَفْ إذا ضاقتْ

---

(١) قال تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (٣٠) وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ .. (٣١)﴾ [النور].

بك الحال ، وإذا تبدّل غنَاك فقراً ، فكما أخذنا منك فى حال الغنى سنُعطيك فى حال الفقر ، وهكذا يجب أن تكون نظرتنا إلى الأمور التكليفية .

وقوله تعالى :

﴿ بِعَهْدِ اللَّهِ .. (٩١) ﴾ [النحل]

عهد الله : هو الشىء الذى تعاهد الله عليه ، وأول عَهْد لك مع الله تعالى هو الإيمان به ، وما دُمْتَ قد آمنتَ بالله فانظر إلى ما طلبه منك وما كلّفك به ، وإياك أن تُخلّ بأمر من أموره ؛ لأن الاختلالَ فى أىّ أمر تكليفي من الله يُعَدُّ نَقْصاً فى إيمانك ؛ لأنك حينما آمنت بالله شهدتَ بما شهد الله به لنفسه سبحانه فى قوله تعالى :

﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ (١٨) ﴾ [آل عمران]

فأوّل مَنْ شهد الله سبحانه لنفسه ، وهذه شهادة الذات للذات (والملائكة) أى : شهادة المشاهدة (وأُولُوا العِلْم) أى : بالدليل والحجة .

إذن : فأوّل عَهْد بينك وبين الله تعالى أنك آمنتَ به إلهاً حكيماً قادراً خالقاً مُربّياً ، فاستمع إلى ما يطلبه منك ، فإنْ لم تستمع وتُنفّذ فاعلم أن العهد الإيمانى الأول قد اختلّ .

ولذلك ، فالحق ـ تبارك وتعالى ـ لم يُكلّف الكافر ، لأنه ليس بينه وبينه عهد ، إنما يُكلّف مَنْ آمن ، فتجد كل آية من آيات الأحكام تبدأ بهذا النداء الإيمانى :

﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا .. (١٨٣) ﴾ [البقرة]

كما فى قوله تعالى :

﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ .. (١٨٣) ﴾ [البقرة]

فيا مَنْ آمنتَ بى ربّاً ، ورضيتنى إلهاً اسمع منِّى ؛ لأنى سأعطيك قانون الصيانة لحياتك ، هذا القانون الذى يُسعدك بالمسبِّب فى الآخرة بعد أن أسعدك بالأسباب فى الدنيا .

وقوله :

﴿ وَلا تَنقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا .. (٩١) ﴾ [النحل]

الأيْمان : جمع يمين ، وهو الحلف الذى نحلفه ونُؤكِّد عليه فنقول : والله ، وعهد الله .. الخ . إذن : فلا يليق بك أنْ تنقضَ ما أكّدته من الأيْمان ، بل يلزمك أنْ تُوفِّى بها ؛ لأنك إنْ وفَّيت بها وُفِّى لك بها أيضاً ، فلا تأخذ الأمر من جانبك وحدك ، ولكن انظر إلى المقابل .

وكذلك العهد بين الناس بعضهم البعض مأخوذ من باطن العهد الإيمانى بالله تعالى ؛ لأننا حينما نتعاهد نُشهد الله على هذا العهد ، فنقول : بينى وبينك عَهْد الله ، فنُدخل بيننا الحق سبحانه وتعالى لنُوثِّق ما تعاهدنا عليه ، وربنا سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً .. (٩١) ﴾ [النحل]

أى : شاهداً ورقيباً وضامناً .

وقوله :

﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾﴾ [النحل]

أى : اعلم أن الله مُطَّلع عليك ، يعلم خفايا الضمائر وما تُكنّه الصدور ، فاحذر حينما تعطى العهد أن تعطيه وأنت تنوى أن تخالفه ، إياك أنْ تُعطى العهد خِداعاً ، فربُّك سبحانه وتعالى يعلم ما تفعل .

ثم يُعقِّب الحق سبحانه :

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا[1] تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا[2] بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾﴾

الحق تبارك وتعالى يضرب لنا فى هذه الآية مثلاً توضيحياً للذين ينقضون العهد والأيْمان ، ولا يُوفون بها ، بهذه المرأة القرشية الحمقاء ريْطة بنت عامر ، وكانت تأمر جواريها بغزل الصوف من الصبح إلى الظهر ، ثم تأمرهُنَّ بنقض ما غزلنه من الظهر حتى العصر[3] ، والمتأمل فى هذا المثل يجد فيه دروساً متعددة .

أولاً : ما الغزل ؟

---

(١) الانكاث : جمع نكْث ، وهو الغزل يُحلُّ بعد فتله وإحكامه . [القاموس القويم ٢/٢٨٤] .

(٢) الدَّخَل : المكر والخديعة والغدر وما يفعله من فسد باطنه وساءت سريرته . [القاموس القويم ١/٢٢٤] .

(٣) أورده القرطبى فى تفسيره (٥/٣٨٩٧) وعزاه للفراء . قال القرطبى : حكاه عبد الله بن كثير والسدى ولم يسميا المرأة . وقال مجاهد وقتادة : ذلك ضَرْب مثل لا على امرأة معينة .

الغَزْل عملية كان يقوم بها النساء قديماً ، فكُنَّ يُحضِرْن المادة التي تصلح للغزل مثل الصوف أو الوبر ومثل القطن الآن ، وهذه الأشياء عبارة عن شعيرات دقيقة تختلف في طولها من نوع لآخر يُسمُّونها التيلة ، فيقولون « هذه تيلة قصيرة » « وهذه طويلة » .

والغَزْل هو أن نُكوِّن من هذه الشعيرات خَيْطاً طويلاً ممتداً وانسيابياً دون عُقَد فيه لكي يصلح للنسْج بعد ذلك ، وتتم هذه العملية بآلة بدائية تسمى المغزل . تقوم المرأة بخلط هذه الشعيرات الدقيقة ثم بَرْمها بالمغزل ، ليخرج في النهاية خيطٌ طويلٌ مُنْسابٌ متناسق لا عُقَد فيه .

والآية هنا ذكرتْ المرأة في هذا العمل ؛ لأنه عمل خاص بالنساء في هذا الوقت دون الرجال ، فكانت المرأة تكنّ في بيتها وتمارس مثل هذه الصناعات البسيطة التي تكوِّن منها أثاث بيتها من فَرْش وملابس وغيره .

وإلى الآن نرى المرأة التي تحافظ على كرامتها من زحمة الحياة ومُعْترك الاختلاط ، نراها تقوم بمثل هذا العمل النسائي .

وقد تطورَ المغزل الآن إلى ماكينة تريكو أو ماكينة خياطة ، مما يُيسِّر للنساء هذه الأعمال ، ويحفظهُنَّ في بيوتهن ، وينشر في البيت جَواً من التعاون بين الأم وأولادها ، وأمامنا مثلاً مشروع الأسر المنتجة حيث تشارك المرأة بجزء كبير في رُقيِّ المجتمع ، فلا مانع إذن من عمل المرأة إذا كان عملاً شريفاً يحفظ عليها كرامتها ويصُون حرمتها .

فالقرآن ضرب لنا مثلاً بعمل المرأة الجاهلية ، هذا العمل الذى يحتاج إلى جَهْد ووقت فى الغزل ، ويحتاج إلى أكثر منه فى نَقْضه وفكّه ، فهذه عملية شاقة جداً ، وربما أمرت الجوارى بفكّ الغزل والنسيج أيضاً ؛ ولذلك أطلقوا عليها حمقاء قريش .

وقوله :

﴿ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ .. ﴿٩٢﴾ ﴾ [النحل]

كلمة قوة هنا تدلُّنا على المراحل التى تمرُّ بها عملية الغَزْل ، وكم هى شاقة ، بداية من جَزِّ الصوف من الغنم أو الوبر من الجمال ، ثم خَلْط أطراف كل تيلة من هذه الشعيرات ، بحيث تكون طرف كل تيلة منها فى وسط الأخرى لكى يتم التلاحم بينها بهذا المزج ، ثم تدير المرأة المغزل بين أصابعها لتخرج لنا فى النهاية بضعة سنتيمترات من الخيط ، ولو قارنَّا بين هذه العملية اليدوية ، وبين ما توصلتْ إليه صناعة الغزل الآن لَتبيَّن لنا كم كانت شاقة عليهم .

فكأن القرآن الكريم شبَّه الذى يُعطِى العهد ويُوثِّقه بالأيْمان المؤكدة ، ويجعل الله وكيلاً وشاهداً على ما يقول بالتى غزلتْ هذا الغزل ، وتحملت مشقته ، ثم راحتْ فنقضت ما أنجزته ، وفكَّتْ ما غزلته .

وكذلك كلمة (قوة) تدلُّناً على أن كل عمل يحتاج إلى قوة ، هذه القوة إما أنْ تُحرِّك الساكن أو تُسكِّن المتحرِّك ؛ لذلك قال تعالى فى آية أخرى :

﴿ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ .. ﴿٦٣﴾ ﴾ [البقرة]

لأن ساكن الخير نريد أن نحركك إليه ، ومتحرك الشر نريد أن نكفك عنه .

وهذه يسمونها في علم الحركة (قانون العطالة) المتحرك يظل مُتحرِّكاً إلى أنْ يعرِضَ له شيء يُسكنه ، والساكن يظل ساكناً إلى أنْ يعرِضَ له شيء يُحرِّكه .

ومن هنا يتعجَّب الكثيرون من الأقمار الصناعية التي تدور أعواماً عدة في الفضاء : ما الوقود الذي يُحرِّك هذه الأقمار طوال هذه الأعوام ؟

والواقع أنه لا يوجد وقود يحركها ، الوقود في مرحلة الانطلاق فقط ، إلى أن يخرج من منطقة الهواء والجذْب ، فإذا ما استقرَّ القمر أو السفينة الفضائية في منطقة عدم الجذب تدور وتتحرك بنفسها دون وقود ، فهناك الشيء المتحرك يظل متحركاً ، والساكن يظل ساكناً .

والحق - تبارك وتعالى - بهذا المثَل المشَاهد يُحذرنا من إخلاف العهد ونقْضه ؛ لأنه سبحانه يريد أن يصونَ مصالح الخلق ؛ لأنها قائمة على التعاقد والتعاهد والأيْمان التي تبرم بينهم ، فمَنْ خان العهد أو نقضَ الأيْمان لا يُوثق فيه ، ولا يُطْمأنُ إلى حركته في الحياة ، ويُسقطه المجتمع من نظره ، ويعزله عن حركة التعامل التي تقوم على الثقة المتبادلة بين الناس .

وقوله : ﴿ أَنكَاثًا ..﴿٩٢﴾ ﴾ [النحل]

جمع نِكْث ، وهو ما نُقِض وحُلَّ فَتْله من الغزل .

وقوله :

﴿ تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ ..(٩٢) ﴾ [النحل]

الدَّخَل : أنْ تدخل فى الشىء شيئاً أدنى منه من جنسه على سبيل الغشّ والخداع ، كأن تدخل فى الذهب عيار ٢٤ قيراطاً مثلاً ذهباً من عيار ١٨ قيراطاً ، أو كأن تُدخلَ فى اللوز مثلاً نَوى المشمش على أنه منه . فكأن الأيْمان القائمة على الصدق والوفاء يعطيها صاحبها وهو ينوى بها الخداع والغش ، فيحلف لصاحبه وهو يقصد تنويمه والتغرير به .

وقوله :

﴿ أن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ[1] ..(٩٢) ﴾ [النحل]

هذه هى العلة فى أنْ نتخذَ الأيْمان دَخَلاً فيما بيننا ، الأيْمان الزائفة الخادعة ؛ ذلك لأن الذى باع نوى المشمش مثلاً على أنه لوز ، فقد أرْبى أى : أخذ أزيْد من حقه ونقص حَقّ الآخرين ، فالعلة إذن فى الخداع بالأيْمان الطمع وطلب الزيادة على حساب الآخرين .

وقد تأتى الزيادة بصورة أخرى ، كأن تُعاهد شخصاً على شىء ما ، وأدَّيْتَ له بالعهود والأيْمان والمواثيق ، ثم عَنَّ لك مَنْ هو أقوى منه سواء كان بالقهر والسلطان أو بالإغراء ، فنقضت العهد الأول لأن الثانى أرْبى منه وأزيد .

---

(١) قال مجاهد فى سبب نزول هذه الآية : نزلت فى العرب الذين كانت القبيلة منهم إذا حالفت أخرى ، ثم جاءت إحداهما قبيلة كثيرة قوية فداخلتها غدرت الأولى ونقضت عهدها ورجعت إلى هذه الكبرى [تفسير القرطبى ٥/٣٨٩٨] .

وفى مثل هذه المواقف يجب أن يأخذ الإنسان حذره ، فمَنْ يُدريك لعله يُفعل بك كما فعلت ، ويُكال لك بنفس المكيال الذى كلْتَ به لغيرك ، فاحذر إذا تجرأتَ على خَلْق الله أن يُجَرِّىء الله عليك مَنْ يسقيك من نفس الكأس .

وإذا كنت صاحب حرفة أو صناعة ، فإياك أنْ تغُشَّ الناس ، وتذكَّر أن لك عندهم مصالح ، وفى أيديهم لك حرف وصناعات ، فإذا تجرأتَ عليهم جرَّأهم الله عليك ؛ لأنه سبحانه يقول : أنا القيُّوم ، أى : القائم على أمركمْ ، فناموا أنتم فأنا لا أنام ، فهذه مسألة يجب أن نلحظها جيداً .

مَنْ تَجرأ على الناس جرَّأهم الله عليه ، ومَنْ أخلص عمله وأتقنه قذف الله فى قلوب الخلق أنْ يُتقنوا له حاجته .

وقوله :

﴿ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ .. (٩٢) ﴾ [النحل]

أى : يختبركم الله تعالى بهذا العهد ، فهو سبحانه يعلم ما أنتم عليه ساعة أنْ عقدتم العهد ، أفِى نيتكم الوفاء ، أم فى نيتكم الغدر والخداع ؟

وهَبْ أنك تنوى الوفاء ثم عرضَ لك ما حال بينك وبينه ، فالله سبحانه يعلم حقائق الأمور ولا يخفَى عليه شىء .

إذن : الابتلاء هنا لا يعنى النكبة والبلاء ، بل يعنى مجرد الاختبار والنكبة والبلاء على الذى يفشل فى الاختبار ، فالعبرة هنا بالنتيجة .

وقوله :

﴿ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٩٢) ﴾ [النحل]

فيوم القيامة تجتمع الخصوم ، وتتكشَّف الحقائق ، ويأتى القضاء فيما اختلفنا فيه فى الدنيا ، وهَبْ أن إنساناً عمِّى على قضاء الأرض فى أشياء ، نقول له : إن عَمَّيْتَ على قضاء الأرض فلن تُعمىَ على قضاء السماء ، وانتظر يوماً نجتمع فيه ونحكم هذه المسائل[1] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٣) ﴾

لو حرف امتناع لامتناع . أى : امتناع وجود الجواب لامتناع وجود الشرط ، كما فى قوله تعالى :

﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا (٢٢) ﴾ [الأنبياء]

فقد امتنع الفساد لامتناع تعدُّد الآلهة .

فلو شاء الله لجعلَ العالم كله أمةً واحدة على الحق ، لا على

---

(١) أخرج مسلم فى صحيحه (١٧١٣) كتاب الأقضية (٤) من حديث أم سلمة رضى الله عنها قالت قال رسول الله ﷺ : « إنكم تختصمون إلىَّ ، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض ، فأقضى له على نحو ما أسمع منه ، فمن قطعت له من حق أخيه شيئاً فلا يأخذه ، فإنما أقطع له به قطعة من النار » .

الضلال ، أمةً واحدة فى الإيمان والهداية ، كما جعل الأجناس الأخرى أمةً واحدة فى الانصياع لمرادات الله منها .

ذلك لأن كل أجناس الوجود المخلوقة للإنسان قبل أن يفدَ إلى الحياة مخلوقة بالحق خَلْقاً تسخيرياً ، فلا يوجد جنس من الأجناس تأبّى عما قصد منه ، لا الجماد ولا النبات ولا الحيوان .

كل هذه الأكوان تسير سَيْراً سليماً كما أراد الله منها ، والعجيب أن يكون الإنسان هو المخلوق الوحيد المختلّ فى الكون ، ذلك لما له من حرية الاختيار ، يفعل أو لا يفعل .

لذلك يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَٰوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ .. (١٨) ﴾ [الحج]

هكذا تسجد كل هذه المخلوقات لله دون استثناء ، إلا فى الإنسان فقال تعالى :

﴿ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ .. (١٨) ﴾ [الحج]

فلماذا حدث هذا الاختلاف عند الناس ؟ لأنهم أصحاب الاختيار ، فيستطيع الواحد منهم أن يفعلَ أو لا يفعل ، هل هذه المسألة خرجت عن إرادة الله ، أم أرادها الله سبحانه وتعالى ؟

قالوا بأن الله زاول قدرته المطلقة فى خَلْق الأشياء المُسخرة ، بحيث لا يخرج شىء عما أريد منه ، وكان من الممكن أنْ يأتىَ

الإنسان على هذه الصورة من التسخير ، لكنه فى هذه الحالة لن يزيد شيئاً ، ولن يضيف جديداً فى الكون ، أليستْ الملائكة قائمة على التسخير ؟

فالتسخير يُثبت القدرة لله تعالى ، فلا يخرج عن قدرته ولا عن مراده شىء ، لكن الاختيار يثبت المحبوبية لله تعالى ، وهذا فَرْقٌ يجب أنْ نتدبَّره .

فمثلاً لو كان عندك عبدان أو خادمان أحدهما سعيد ، والآخر مسعود ، فأخذت سعيداً وقيَّدته إليك فى حبل ، فى حين تركت مسعوداً حراً طليقاً ، وحين أمرت كلاً منهما لَبَّى وأطاع ، فأيّ طاعة ستكون أحبّ إليك : طاعة القهر والتسخير ، أم الطاعة بالاختيار ؟

فكأن الحق تبارك وتعالى خلق الإنسان وكرَّمه بأنْ جعلَه مختاراً فى أنْ يطيعَ أو أنْ يعصىَ ، فإذا ما أتى طائعاً مختاراً ، وهو قادر على المعصية ، فقد أثبتَ المحبوبية لربه سبحانه وتعالى .

ولا بُدّ أنْ تتوافرَ للاختيار شروطٌ . أولها : العقل ، فهو آلة الاختيار ، كذلك لا يُكلَّف المجنون ، فإذا توفَّر العقل فلا بُدّ له من النُّضْج والبلوغ ، ويتمّ ذلك حينما يكون الإنسان قادراً على إنجاب مثْله ، وأصبحتْ له ذاتية مولده .

وهذه سمَة اكتمال الذات ؛ فهو قبل هذا الاكتمال ناقص التكوين ، وليس أهْلاً للتكليف ، فإذا كان عاقلاً ناضجاً بالبلوغ واكتمال الذات ، فلا بُدّ له أنْ يكون مختاراً غَيْرَ مُكْره ، فإنْ أُكْره على الشىء فلن يسأل عنه ، فإن اختلّ شَرْط من هذه الثلاثة فلا معنى للاختيار ، وبذلك يضمن الحق تبارك وتعالى للإنسان السلامة فى الاختيار .

والحق تبارك وتعالى وإن كرَّم الإنسان بالاختيار ، فمن رحمته به أنْ يجعلَ فيه بعض الأعضاء اضطرارية مُسخَّرة لا دَخْلَ له فيها .

ولو تأملنا هذه الأعضاء لوجدناها جوهرية ، وتتوقف عليها حياة الإنسان ، فكان من رحمة الله بنا أنْ جعل هذه الأعضاء تعمل وتُؤدِّى وظيفتها دون أنْ نشعرَ .

فالقلب مثلاً يعمل بانتظام فى اليقظة والمنام دون أن نشعرَ به ، وكذلك التنفس والكُلَى والكبد والأمعاء وغيرها تعمل بقدرته سبحانه مُسخَّرة ، كالجماد والنبات والحيوان .

ومن لُطْف الله بخَلْقه أنْ جعلَ هذه الأعضاء مُسخَّرة ، لأنه بالله لو انت مختار فى عمل هذه الأعضاء ، كيف تتنفس مثلاً وأنت نائم ؟!

إذن : من رحمة الله أنْ جعلكَ مختاراً فى الأعمال التى تعرضُ لك ، وتحتاج فيها إلى النظر فى البدائل ؛ ولذلك يقولون : الإنسان أبو البدائل . فالحيوان مثلاً وهو أقرب الأجناس إلى الإنسان ليس لديْه هذه البدائل ولا يعرفها ، فإذا آذيتَ حيواناً فإنه يُؤذيك ، وليس لديه بديل آخر .

ولكن إذا آذيْت إنساناً ، فيحتمل أن يردّ عليك بالمثل ، أو بأكثر مما فعلتَ ، أو أقلّ ، أو يعفو ويصفح ، والعقل هو الذى يُرجِّح أحد هذه البدائل .

إذن : لو شاء الحق سبحانه وتعالى أن يجعل الناس أمة واحدة لجعلها ، كما قال تعالى :

﴿ أن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا (٣١) ﴾ [الرعد]

ولكنه سبحانه وتعالى لم يشأ ذلك ، بدليل قوله :

﴿ وَلَـٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ .. (٩٣) ﴾ [النحل]

وهذه الآية يقف عندها المتمحكون ، والذين قَصُرَتْ أنظارهم فى فهْم كتاب الله ، فيقولون : طالما أن الله هو الذى يضلّ الناس ، فلماذا يُعذِّبهم ؟ ونتعجَّب من هذا الفهم لكتاب الله ونقول لهؤلاء : لماذا أخذتُمْ جانب الضلال وتركتُم جانب الهدى ؟ لماذا لم تقولوا : طالما أن الله بيده الهداية ، وهو الذى يهدى ، فلماذا يُدخِلنا الجنة ؟

إذن : هذه كلمة يقولها المسرفون ؛ لأن معنى :

﴿ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِى مَن يَشَاءُ .. (٩٣) ﴾ [النحل]

أى : يحكم على هذا من خلال عمله بالضلال ، ويحكم على هذا من خلال عمله بالهداية ، مثل ما يحدث عندنا فى لجان الامتحان ، فلا نقول : اللجنة أنجحت فلاناً وأرسبت فلاناً ، فليست هذه مهمتها ، بل مهمتها أن تنظر أوراق الإجابة ، ومن خلالها تحكم اللجنة بنجاح هذا وإخفاق ذاك .

وكذلك الحق - تبارك وتعالى - لا يجعل العبد ضالاً ، بل يحكم على عمله أنه ضلال وأنه ضَالّ ؛ فالمعنى إذن : يحكم بضلال مَنْ يشاء ، ويحكم بهُدَى مَنْ يشاء ، وليس لأحد أن ينقلَ الأمر إلى عكس هذا الفهم ، بدليل قوله تعالى بعدها :

﴿ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٣) ﴾ [النحل]

فالعبد لا يُسأل إلا عمَّا عملتْ يداه ، والسؤال هنا معناه حرية الاختيار فى العمل ، وكيف تسأل عن شىء لا دَخْل لك فيه ؟ فلنفهم - إذن - عن الحق تبارك وتعالى مُرَادَهُ من الآية .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾ ﴾

وردتْ كلمة الدّخَل فى الآية قبل السابقة وقلنا : إن معناها : أن تُدخلَ فى الشىء شيئاً أدْنى منه من جنسه على سبيل الغشّ والخداع ، وإن كان المعنى واحداً فى الآيتين فإن الآية السابقة جاءت لتوضيح سبب الدَّخَل وعلّته ، وهى أن تكون أُمة أرْبى من أمة ، ويكسب أحد الأطراف على حساب الآخر . أما فى هذه الآية فجاءت لتوضيح النتيجة من وجود الدَّخَل ، وهى :

﴿ فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا ..﴿٩٤﴾ ﴾ [النحل]

ففى الآية نَهْىٌ عن اتخاذ الأيْمان للغش والخداع والتدليس ؛ لأن نتيجة هذا الفعل فساد يأتى على المجتمع من أساسه ، وفَقْد للثقة المتبادلة بين الناس والتى عليها يقوم التعامل ، وتُبنَى حركة الحياة ، فالذى يُعطى عهداً ويُخْلفه ، ويحلف يميناً ويحنث[(١)] فيه يشتهر عنه أنه مُخلف للعهد ناقض للميثاق .

وبناءً عليه يسحب الناس منه الثقة فيه ، ولا يجرؤ أحد على

---

(١) حنث فى يمينه : لم يَفِ باليمين . [القاموس القويم ١/١٧٥] .

الصَّفَق[1] معه ، فيصبح مَهيناً ينفضُ الناس أيديهم منه ، بعد أنْ كان أميناً وأهلاً للثقة ومَحلاً للتقدير[2] .

هذا معنى قوله تعالى :

﴿ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا .. ﴿٩٤﴾ ﴾ [النحل]

وبذلك يسقط حقُّه مع المجتمع ، ويحيق به سوء فِعْله ، ويجنى بيده ثمار ما أفسده في المجتمع ، وبانتشار هذا الخلُق السيىء تتعطّل حركة الحياة ، وتضيع الثقة والأمانة .

إذن : هذه زَلّة وكَبْوة بعد ثبات وقوة ، بعد أنْ كان أهْلاً للثقة صاحب وفاء بالعهود والمواثيق يُقبِل عليه الناس ، ويُحبُّون التعامل معه بما لديْه من شرف الكلمة وصِدْق الوعد ، فإذا به يتراجع للوراء ، ويتقهقر للخلف ، ويفقد هذه المكانة .

ولذلك نجد أهل المال والتجارة يقولون : فلان اهتزَّ مركزه فى السوق أى : زَلَّتْ قدمه بما حدث منه من نقْضٍ للعهود ، وحِنْث فى

(١) تصافقوا : تبايعوا . وصفق يده بالبيعة والبيع وعلى يده صفقاً : ضرب بيده على يده ، وذلك عند وجوب البيع . [لسان العرب ـ مادة : صفق] .

(٢) أخرج أبو داود فى سننه (٣٣٨١) والبيهقى فى السنن الكبرى (٧٨/٦) وكذا فى السنن الصغرى (٢٢٠١) والحاكم فى مستدركه (٥٢/٢) من حديث أبى هريرة قال قال رسول الله ﷺ : « يقول الله عز وجل : أنا ثالث الشريكين ما لم يخن أحدهما صاحبه ، فإذا خانه خرجت من بينهما » .

قال الطيبى رحمه الله : « الشركة عبارة عن اختلاط أموال بعضهم ببعض بحيث لا يتميز ، وشركة الله تعالى إياهما على الاستعارة ، كأنه تعالى جعل البركة والفضل والربح بمنزلة المال المخلوط ، فسمى ذاته تعالى ثالثهما » . نقله شمس الدين العظيم آبادى فى عون المعبود (١٧٠/٥) .

الأيمان وغير ذلك مما لا يليق بأهل الثقة فى السوق ، ومثل هذا ينتهى به الأمر إلى أنْ يعلنَ إفلاسه فى دنيا التعامل مع الناس

أما الوفاء بالعهود والمواثيق والأيْمان فيجعل قدمك فى حركة الحياة ثابتة لا تتزحزح ولا تهتزّ ، فترى مال الناس جميعاً مالَه ، وتجد أصحاب الأموال مقبلين عليك يضعون أموالهم بين يديك ، بما تتمتع به من سمعة طيبة ونزاهة وأمانة فى التعامل .

ولذلك ، فالتشريع الإسلامى حينما شرع لنا الشركة راعى هذا النوع من الناس الذى لا يملك إلا سمعة طيبة وأمانة ونزاهة ووفاء ، هذا هو رأس مالهم ، فإنْ دخل شريك بما لدْيه من رأس المال ، فهذا شريك بما لديْه من شرف الكلمة وشرف السلوك ، ووجاهة بين الناس ، وماضٍ مُشرِّف من التعامل .

وهذه يسمونها « شركة الوجوه والأعيان » وهذا الوجيه فى دنيا المال والتجارة لم يأخذ هذه الوجاهة إلا بما اكتسبه من احترام الناس وثقتهم ، وبما له من سوابق فضائل ومكارم .

وكذلك ، قد نرى هذه الثقة لا فى شخص من الأشخاص ، بل نراها فى ماركة من الماركات أو العلامات التجارية ، فنراها تُبَاع وتُشْترى ، ولها قيمة غالية فى السوق بما نالتْه من احترام الناس وتقديرهم ، وهذا أيضاً نتيجة الصدق والالتزام والأمانة وشرف الكلمة .

وقوله تعالى :

﴿ وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٩٤) ﴾ [النحل]

السوء : أى العذاب الذى يسُوء صاحبه فى الدنيا من مهانة واحتقار بين الناس ، وكسَاد فى الحال ، بعد أنْ سقط من نظر المجتمع ، وهدم جِسْر الثقة بينه وبين مجتمعه .

وقوله تعالى :

﴿ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ .. (٩٤) ﴾ [النحل]

الحديث هنا عن الذين ينقضون العهود والأَيْمان ولا يُوفُونَ بها ، فهل فى هذا صَدٌّ عن سبيل الله ؟

نقول : أولاً إن معنى سبيل الله : كل شىء يجعل حركة الحياة منتظمة تُدَار بشرف وأمانة وصِدْق ونفاذ عهد .

ومن هنا ، فالذى يُخلف العهد ، ولا يفى بالمواثيق يعطى للمجتمع قدوة سيئة تجعل صاحب المال يضَنُّ بماله ، وصاحب المعروف يتراجع ، فلو أقرضتَ إنساناً وغدرَ بكَ فلا أظنُّك مُقرِضاً لآخر .

إذن : لا شكَّ أن فى هذا صداً عن سبيل الله ، وتزهيداً للناس فى فعْل الخير .

وقوله تعالى :

﴿ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٩٤) ﴾ [النحل]

فبالإضافة إلى ما حاقَ بهم من خسارة فى الدنيا ، وبعد أنْ زلَّتْ بهم القدم ، ونزل بهم من عذاب الدنيا ألوانٌ ما زال ينتظرهم عذاب عظيم أى فى الآخرة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾ ﴾

الحق تبارك وتعالى فى هذه الآية ينهانا ويُحذِّرنا : إياك أنْ تجعلَ عَهْدَ الله الذى أكدته للناس ، وجعلت الله عليه كفيلاً ، فبعد أن كنت حُراً فى أن تعاهد أو لا تعاهد ، فبمجرد العهد أصبح نفاذه واجباً ومفروضاً عليك .

أو : عهد الله - أى - شرعه الذى تعاهدتَ - على العمل به والحفاظ عليه ، وهو العهد الإيمانى الأعلى ، وهو أن تؤمنَ بالله وبصدق الرسول فى البلاغ عن الله ، وتلتزم بكل ما جاء به الرسول من أحكام ، إياك أنْ تقابله بشىء آخر تجعله أغلى منه ؛ لأنك إنْ نقضْتَ عهد الله لشىء آخر من متاع الدنيا الزائل فقد جعلتَ هذا الشىء أغلى من عهد الله ؛ لأن الثمن مهما كان سيكون قليلاً .

ثم يأتى تعليل ذلك فى قوله :

﴿ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ .. ﴿٩٥﴾ ﴾ [النحل]

فالخير فى الحقيقة ليس فى متاع الدنيا مهما كَثُر ، بل فيما عند الله تعالى ، وقد أوضح ذلك فى قوله تعالى :

﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ﴿٩٦﴾ ﴾ [النحل]

ولنا وقفة مع قوله تعالى :

﴿ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ .. ﴿٩٥﴾ ﴾ [النحل]

فهذا أسلوب توكيد بالقصر بإعادة الضمير (هو) ، فلم يَقُل الحق سبحانه إنما عند الله خير لكم ، فيحتمل أن ما عند غيره أيضاً خيرٌ لكم ، أما في تعبير القرآن ﴿ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ أي : الخير فيما عند الله على سبيل القَصْر ، كما في قوله تعالى :

﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (٨٠) ﴾ [الشعراء]

فجاء بالضمير « هو » ليؤكد أن الشافي هو الله لوجود مَظنّة أن يكون الشفاء من الطبيب ، أما في الأشياء التي لا يُظَنّ فيها المشاركة فتأتي دون هذا التوكيد كما في قوله تعالى :

﴿ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ (٨١) ﴾ [الشعراء]

فلم يقل : هو يميتني هو يُحيين ؛ لأنه لا يميت ولا يُحيي إلا الله ، فلا حاجةَ للتوكيد هنا .

ما الذي يُخرج الإنسان عن الوفاء بالعهد ؟

الذي يُخرج الإنسان عن الوفاء بالعهد أنْ يرى مصلحة سطحية فوق ما تعاقد عليه تجعله يخرج عما تعاهد عليه إلى هذه السطحية ، ولكنه لو عقل وتدبَّر الأمر لعلم أنّ ما يسعى إليه ثمن بَخْسٌ ، ومكسب قليل زائل إذا ما قارنه بما ادخر له في حالة الوفاء ؛ لأن ما أخذه حظاً من دنياه لابُدّ له من زوال .

والعقل يقول : إن الشيء ، إذا كان قليلاً باقياً يفضل الكثير الذي لا يبقى ، فما بالك إذا كان القليل هو الذي يفنى ، والكثير هو الذي يبقى .